عقائد وإيمانيات

الإيمان بالقدرواستدلالات المخالفين ومناقشتها مع بيان مذهب السلف فيه

خورشيد عالم جميل أحمد المدني

يعتبر الإيمان بالقدر والكلام فيه، وكتابة المقالات والبحوث فيه من أهم المسائل العلمية والقضايا الدينية التي نحتاجها كل وقت وساعة، وقد يضلّ الناس فيه منذ فترة طويلة، ويختلف كثير من الناس حوله، كما تجد أقوال الفرق المتعددة مختلفة عن منهج سلف الأمة في هذا الباب خصوصًا، لذلك ينبغي على المتخصصين في العقيدة وخبرائها أن يعتنوا ويهتموا بكتابة المقالات والبحوث في القضاء والقدر كي يمكن تعليم الأشخاص والجماعات في المجتمع الذين يعانون من أنواع الضلال والأخطاء، وإخبارهم بالعقيدة الصحيحة في باب القدر، وتزويدهم بالمعلومات الصحيحة حول هذا الركن العظيم من الإيمان.

لا شكّ أنّ الإيمان بالقدر ركن سادس من أركان الإسلام العظيمة، وأصل من أصول الإيمان وهو مذكور في حديث جبريل المشهور " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره" (١)، وكذلك الإيمان بالقضاء والقدر من أصول أهل السنة والجماعة كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: "ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمرّ القضاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال". (٢)

(١)صحيح البخاري ومسلم.
(٢)العقيدة الواسطية: ١٣٠).

فيجب على العباد الإيمان به، فمن أنكره ونفاه فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا، وخرج من الملة الإسلامية، لأنّه لم يؤمن بجميع أركان الإيمان؛ لذا يجب علينا الاهتمام بهذا الجانب، والحصول على المعلومات حول هذا الركن المهم للمسلمين.

وتزداد أهمية مثل هذه الأبحاث والمقالات لاشتمالها على أهم مسائل القدر وأهم مباحث الدين وأعظم أصول الحق واليقين لتعلقها بالإيمان بالله، ولعدم اتصاف المؤمن بالإيمان إلا به وكذلك سبب خوض الناس وإضلالهم فيها، وارتباطها بحياة الناس وأحوالهم اليومية.

إخوتي الكرام في الله! إن الله عز وجل قدّر الأشياء قبل وقوعها وكتبها وعلمها ما يحدث في الوجود وما لم تحدث بل لو تحدث كيف تكون؟، هذه كلها مقدرة ومعلومة ومكتوبة عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقد ورد في الحديث الصحيح: "إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة".

تعريف القدر:

القدر في اللغة؛ هذه الكلمة تتكون من ثلاثة أحرف أصلية صحيحة وهي القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على "مبلغ الشيء وكنهه ونهايته". (مقاييس اللغة: ٥/ ٦٢).

ويكون القدر بمعنى: التقدير(١)؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

القدر في الشرع: وهو عبارة عما قضاه الله وحكم به من الأمور. وهو مصدر: قدر يقدر قدرا. وقد تسكن داله(٢).

يقول السفاريني -رحمه الله-: "القدر عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن إلى الأبد، وأنه - عز

---

(١) مجموع فتاوى و رسائل ابن عثيمين (٨/ ٥٣٩).
(٢) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٢).

وجل – قدّر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم – سبحانه وتعالى – أنها ستقع في أوقات معلومة عنده – تعالى –، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها"(١).

وقال ابن بَطَّة العكبري –رحمه الله–: "والقدر في القرآن الكريم وعند السلف عبارة عن علم الله الشامل لجميع الموجودات وتقديرها جملة وتفصيلا أي تحديدها ذاتا وصفة زمانا ومكانا كمّا وكيفية ماهية وخاصية ونوعا ثم كتابة ذلك كله في أم الكتاب قبل خلق السماوات والأرضيين بخمسين ألف سنة(٢)، كما نص على ذلك الحديث الشريف فيما رواه مسلم وغيره "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء"(٣).

(١) لوامع الأنوار (١/ ٣٤٨).
(٢) الإبانة الكبرى (٣/ ١٤١).
(٣) صحيح مسلم (٨/ ٥٢).

وعرفه جماعة من العلماء بأنه الحكم الكوني، يعني: الحكم وقضاء الله عز وجل في الكون، وعرفه آخرون بأنه علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، وهذا تعريف سهل يسير يجمع لك بيان كل ما يتعلق بالقدر ومراتبه.

والذي عليه أهل السنة والجماعة من الصحابة، والتابعين لهم كما ذكر ابن بطة –رحمه الله– "وجوب الإمساك عن الكلام في القدر وعن السؤال عنه بكيف ولماذا قدر كذا وكذا وذلك لأن القدر سر من أسرار الله اختص به الرب فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه فلا ينبغي للمخلوق التطلع إلى ما لا سبيل إلى معرفته فلا يسأل عن الحكمة في القدر وسر الله فيه فالواجب الإيمان والتسليم ورد ما استشكل من حكمه إلى الله تعالى دون أن يجهد نفسه للسؤال عن الحكمة والسر فيه(٤)، وأوضح رحمه الله موقف عامة السلف ومنهجهم في مسألة القدر فقال: وقد كان سلفنا وأئمتنا رحمة الله عليهم

(٤)الإبانة الكبرى (٣/ ٢٢٥).

يكرهون الكلام في القدر وينهون عن خصومة أهله وموادعتهم القول أشد النهي ويتبعون في ذلك السنة وآثار المصطفى صلى الله عليه وسلم. فجميع ما قدر في هذا الباب يلزم العقلاء الإيمان بالقدر والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره وترك البحث والتنقير وإسقاط لم وكيف وليت ولولا فإن هذا كله اعتراضات من العبد على ربه (١).

فإن الايمان بالقدر والتسليم لقضائه وترك البحث فيه بكيف ولم واجب على كل مسلم، وقد ذكر أهل العلم أنه على أربعة أقسام وبعضهم ذكروا أنه على خمسة أنواع:

١- **التقدير العام**:هو الذي كتبه الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى قيام الساعة.

٢- **التقدير العمري**:هو الذي يكتب والإنسان في رحم أمه، يبعث إليه الملك فيؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، يكتب ذلك وهو في الرحم مع أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا لكل إنسان، ولهذا قال في الحديث: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)). (٢)

٣- **التقدير العمري**: هو ما فيه النهاية؛ يعني ما كَتَبَهُ الله - عز وجل - بما فيه نهاية العبد وما فيه نتيجة أثر الدعاء وأثر الأعمال إلى آخره مما قد يكون مُتَغَيِّراً.

إذاً فقوله - عز وجل - ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ يعني مما في أيدي الملائكة من الصحف ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ وكذلك من التقدير اليومي.

٤- **التقدير السنوي**: هو الذي يكون في ليلة القدر قال - عز وجل - ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ

(١) الإبانة الكبرى (٣/ ٢٢٦).

(٢)صحيح البخاري (٣٣٣٢)، صحيح مسلم (٢٦٤٣).

مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١-٤] .

٥- **التقدير اليومي**:واستدل له أهل العلم بقوله سبحانه {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن:٢٩].

مراتب القدر:

وهي أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأنّ تؤمن بأنّ الله تعالى علم كل شيء جملةّ وتفصيلّا، فعلم ما كان ومايكون؛ فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقّا أم جليلّا من أفعاله أو أفعال خلقه. وأدلة ذلك في الكتاب كثيرة أذكر بعضّا منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الحج: ٧٠]. ففي هاتين الآيتين دلالةٌ واضحةٌ على إثبات العلم.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]، وقول النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء». (صحيح مسلم)

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدا، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق.

وتدل على هذه المرتبة آيات عديدة منها:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٢- وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١١٢].

٣- وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وليس في الوجود موجِب ومقتضٍ على

الحقيقة إلا مشيئة الله وحده، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن» (١)

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السماوات والأرض إلا الله خالقه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان.

أقوال أهل السنة والجماعة ومذهبهم في القدر:

إنَّ الكلام والجدل والخصومة في القدر منهي عنه عند جميع الفرق لأن القدر سر الله ونهى الربّ جل اسمه الأنبياء عن الكلام في القدر ونهى النبي - ﷺ- عن الخصومة في القدر وكرهه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتابعون وكرهه العلماء وأهل الورع ونهوا عن الجدال في القدر فعليك

(١)(شفاء العليل: ٣٤).

بالتسليم والإقرار والإيمان واعتقاد ما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في جملة الأشياء وأسكت عما سوى ذلك(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد(٣)".معنى قوله رحمه الله: (نظام التوحيد) أي أن كل من لم يؤمن بالقدر فقد انتقض توحيده؛ لأنَّ الإيمان بالقدر أساس التوحيد، فمن لم يؤمن بالقدر لا توحيد له، ومن لم يؤمن بالقدر لا إيمان له.

يقول الإمام أحمد رحمه الله : "الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره وأنَّ مع كل عبد رقيبًا وعتيدًا وحفيظًا وشهيدًا يكتبان حسناته ويحصيان سيئاته وأن كل مؤمن وكافر وبر وفاجر يعاين عمله عند حضور منيته ويعلم مصيره قبل مميتته"(٤).

(٢) طبقات الحنابلة:٢/ ٨٢.
(٣)شفاء العليل:١/ ٦٥
(٤)طبقات الحنابلة: (٢/ ١٨٤).

وقال عوف رحمه الله: "من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارًا وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر وأمر ونهى". (شفاء العليل:٢٨).

يقول الثوري رحمه الله:الإيمان بالقدر، والرضا به: يذهب عن العبد الهم والغم والحزن(١).

يقول البيهقي- رحمه الله-: "أفعال الخلق كلها مقدرة لله - عز وجل - مكتوبة له وأن الله - عز وجل - لم يزل عالما بما يكون ولا يزال عالما بما كان ويكون"، قال الله:﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾. (القضاء والقدر للبيهقي١٠٧).

يقول ابن تيمية رحمه الله: إن مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد. وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه؛ بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئا إلا وهو قادر عليه. وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء(٢).

قال ابن القيم رحمه الله : أن القدر لا شر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم الله وقدرته وكتابه ومشيئته وذلك خير محض(٣).

حكم الرضا بالقضاء والقدر:

(١) مدارج السالكين:٢/ ٢١٣

(٢)مجموع الفتاوى:٨/ ٤٤٩

(٣) شفاء العليل (١/ ٢٦٨)

إنّ المتأمل في هذا الباب يجدمنازعة الناس فيه واختلافهم هل هو واجب أو مستحب على قولين: وهما وجهان لأصحاب أحمد؛ فمنهم من قال بوجوبه، واحتج عليه بأنّه من لوازم الرضا بالله ربًّا وذلك واجب، ومنهم من قال باستحبابه غير واجب لأنّ الإيجاب يستلزم دليلًا شرعيًا ولا دليل يدل على الوجوب، وهذا القول أرجح فإنّ الرضا من مقامات الإحسان التي هي من أعلى المندوبات (١).

وسئل فضيلته–ابن عثيمين رحمه الله: عن حكم الرضا بالقدر؟

فأجاب قائلا: "أما الرضا بالقدر فهو واجب؛ لأنّه من تمام الرضا بربوبية الله، فيجب على كل مؤمنٍ أن يرضى بقضاء الله، ولكن المقضي هو الذي فيه التفصيل فالمقضي غير القضاء؛ لأنّ القضاء فعل الله، والمقضي مفعول الله، فالقضاء الذي هو فعل الله يجب أن نرضى به، ولا يجوز أبدًا أن نسخطه بأيّ حالٍ من الأحوال.

وأما المقضي فعلى أقسام:

القسم الأول: ما يجب الرضا به.

القسم الثاني: ما يحرم الرضا به.

القسم الثالث: ما يستحب الرضا به.

فمثلًا المعاصي من مقتضيات الله، ويحرم الرضا بالمعاصي، وإن كانت واقعةً بقضاء الله، فمن نظر إلى المعاصي من حيث القضاء الذي هو فعل الله يجب أن يرضى، وأن يقول: إن الله – تعالى – حكيم، ولولا أن حكمته اقتضت هذا ما وقع، وأما من حيث المقضي وهو معصية الله فيجب ألا ترضى به، والواجب أن تسعى لإزالة هذه المعصية منك أو من غيرك.

وقسم من المقضي يجب الرضا به مثل الواجب شرعا؛ لأن الله حكم به كونًا، وحكم به شرعًا، فيجب الرضا به من حيث القضاء ومن حيث المقضي.

وقسم ثالث: يستحب الرضا به، ويجب الصبر عليه، وهو ما يقع من المصائب، فما يقع من المصائب يستحب

(١) ينظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ١/ ٢٧٨

الرضا به عند أكثر أهل العلم ولا يجب، لكن يجب الصبر عليه، والفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر يكون الإنسان فيه كارها للواقع، لكنه لا يأتي بما يخالف الشرع وينافي الصبر والرضا: لا يكون كارهًا للواقع فيكون ما وقع، وما لم يقع عنده سواء، فهذا هو الفرق بين الرضا والصبر؛ ولهذا قال الجمهور: إن الصبر واجب، والرضا مستحب(١).

والقدر يؤمن به ولا يحتج به، بل العبد مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب، ويستغفر الله عند الذنوب والمعايب(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

إشكال:فإن قيل فكيف يجتمع الرضا بالقضاء بالمصائب مع شدة الكراهة والنفرة منها؟ وكيف يكلف العبد أن يرضى بما هو مؤلم له وهو كاره له وإلا لم يقتض الكراهة والبغض المضاد للرضا واجتماع الضدين محال؟

قيل: الشيء قد يكون محبوبًا مرضيًا من جهة ومكروهًا من جهة أخرى كشرب الدواء النافع الكريه فإن المريض يرضى به مع شدة كراهته له وكصوم اليوم الشديد الحر فإن الصائم يرضى به مع شدة كراهته له وكالجهاد للأعداء قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} فالمجاهد المخلص يعلم أن القتال خير له فرضي به وهو يكرهه لما فيه من التعرض لإتلاف النفس وألمها ومفارقة المحبوب ومتى قوي الرضا بالشيء وتمكن انقلبت كراهته محبة وإن لم يخل من الألم فالألم بالشيء لا ينافي الرضا به وكراهته من وجه لا ينافي محبته وإرادته والرضا به من وجه آخر(٣).

(يتبع)

---

(١) مجموعة فتاوى و رسائل ابن عثيمين (٢/ ٩٢).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٨٩)
(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل:١/ ٢٧٨-٢٧٩.